التواصل في علاقة المساعدة النفسية

الدكتورة نادية شرادي
أستاذة محاضرة
جامعة سعد دحلب- البليدة

ملخص :

التواصل ظاهرة إنسانية ذات طبيعة معقدة وأوجه مختلفة ومتعددة. تعتمد في إطار المساعدة النفسية على المشاركة الوجدانية لأحاسيس الآخر مع مراقبة من قبل الفاحص لما يحدث على مستواه ،حتى لا يتدخل في الصدى النفسي لمفحوصه.

قد يكون هذا التواصل بينهما بخطاب مباشر وآخر غير مباشر، يخضع الأول للوعي والثاني للاوعي، إذ يتم تبادل أفكار من لا شعور إلى لاشعور طرفي العلاقة، كأنها رسائل غير مرئية، عدم انتباه الفاحص لها قد يؤثر سلبا على العلاقة التحويلية ومن ثمة على المساعدة النفسية.، هذا ما نحاول بلورته من خلال هذا المقال.

La communication est un phénomène humain complexe qui se manifeste à travers divers aspects .Dans la relation thérapeutique la communication s'appuie sur l'empathie qui doit s'instaurer entre le patient et le thérapeute, avec obligation pour ce dernier de contrôler ses affectes a fin d'éviter de rentrer en résonance avec son patient.

Dans ce contexte particulier, va s'établir entre les deux protagonistes un échange de discours à deux niveaux, l'un manifeste et l'autre latent, le premier émane du conscient, le second relève du subconscient, il s'agit en fait d'une relation d'inconscient à inconscient.Le thérapeute doit pouvoir intercepter, interpréter et prendre en compte le message latent, afin de garantir la réussite de la relation transférentielle ; C'est ce que nous comptant développer à travers cette article.

Wondershare TM
PDF Editor

كلمات مفتاح : التواصل ، المساعدة النفسية ، التحويل ، اللاوعي.

مقدمة

يعتبر التواصل عملية نفسية- اجتماعية، لها أهمية كبرى وواضحة في العلاقة الثنائية.

يعتمد التواصل على اللقاء المباشر بين طرفي العلاقة الثنائية : الفاحص والمفحوص ويتم بينهما عن طريق استخدام اللغة والرموز الشعورية و اللاشعورية.

يعد الاتصال أساس النشاط النفسي أثناء العلاقة الثنائية، يتعلق بظواهر نفسية بحتة كالإستعاب، الإدراك، التفكير، التذكر، والهدف منه هو مساعدة المفحوص على التخلص من الآلام التي يعاني منها أو عانى منها، ربما لعدة سنوات وكذا مساعدته، على تحسين علاقاته التفاعلية؛ فمهام الفاحص تكمن في مساعدة المفحوص على تجاوز الصراعات التي يعاني منها وحل المشاكل التي يواجهها، يمكن أن يتعلق الأمر بمشاكل علائقية معينة كالتفاعل السلبي مع الأسرة، أو عدم التكيف في المدرسة إذا كان تلميذا، والعلاقات الاجتماعية عامة، يتم ذلك بالإصغاء الفعال لكل الرسائل الوجدانية التي من شأنها عرقلة مسار التحويل سواء من قبله أو من قبل مفحوصه، كما نوضحه من خلال ما يلي :

1- التحويل والتواصل في المساعدة النفسية :

يتأسس التحويل(Le transfert)، في عملية الاتصال أثناء العلاقة التي تجمع طرفي المساعدة النفسية ألا وهما الفاحص والمفحوص في شكل تفاعلي بينهما. يعد (التحويل) ظاهرة هامة لفهم ما يحدث للآخر، كما يساعد على استمرار علاقة المساعدة النفسية؛ ففي التحويل لا يتوجه المفحوص إلى الشخصية الموجودة أمامه فقط (أي إلى الفاحص فقط) الذي يتحدث معه، لا، ولكن أيضا بطريقة لا شعورية إلى أشخاص وإلى صور من تاريخه الشخصي؛ لهذا فإن الطريقة التحليلية تركز على هذا التحويل ، لأن فيه يتم نقل مشاعر قديمة (Sentiment anciens) كانت في الماضي البعيد موجهة للوالدين وفي وضعية الفحص هي مكررة اتجاه الشخص الذي يصغي (الفاحص).

Wondershare™
PDF Editor

أي أن هذا النوع من الوضعيات الاتصالية، يسمح بتكرار ومعايشة متجددة بشكل لا شعوري طبعا لمشاعر وأحاسيس قديمة كانت في الماضي البعيد (الطفولة) موجه نحو الوالدين، والآن في وضعية الفحص موجه نحو الفاحص الذي يستقبل في الحاضر الماضي (ماضي المفحوص).

يعتبر التواصل عملية نفسية- اجتماعية، لها أهمية كبرى وواضحة في العلاقة الثنائية.

يعتمد التواصل على اللقاء المباشر بين طرفي العلاقة الثنائية : الفاحص والمفحوص ويتم بينهما عن طريق استخدام اللغة والرموز الشعورية و اللاشعورية.

يعد الاتصال أساس النشاط النفسي أثناء العلاقة الثنائية، يتعلق بظواهر نفسية بحتة كالإستعاب، الإدراك، التفكير، التذكر، والهدف منه هو مساعدة المفحوص على التخلص من الآلام التي يعاني منها أو عانى منها، ربما لعدة سنوات وكذا مساعدته، على تحسين علاقاته التفاعلية؛ فمهام الفاحص تكمن في مساعدة المفحوص على تجاوز الصراعات التي يعاني منها وحل المشاكل التي يواجهها، يمكن أن يتعلق الأمر بمشاكل علائقية معينة كالتفاعل السلبي مع الأسرة، أو عدم التكيف في المدرسة إذا كان تلميذا، والعلاقات الاجتماعية عامة، يتم ذلك بالإصغاء الفعال لكل الرسائل الوجدانية التي من شأنها عرقلة مسار التحويل سواء من قبله أو من قبل مفحوصه.

يعتبر إذن الفاحص في الواقع همزة وصل في العملية الاتصالية بين حاضر وماضي المفحوص ؛ فعن طريقه يتم تحرير رسائل مشحونة بطاقة وجدانية كانت مخزنة في أعماق المفحوص، وبذلك يتجه هذا الأخير من خلال الفاحص إلى شخص أو أشخاص آخرين عرفهم و اتصل بهم في حياته الماضية.

بهذا الشكل يدل التحويل على واقع مكثف في الزمان، مشاعر ماضية كانت اتجاه الوالدين، تكرر في الحاضر اتجاه الفاحص.

هذا التحويل ضروري وهام بتركه يتكون ثم يحلله، أي التحاور مع المفحوص كيف هذا الأخير يكرر على شخصية الفاحص علاقات ماضية، الأمر الذي يسمح بالتعرف عليها، أي على هذه العلاقات ونوعها وتحليلها لمعرفة

Wondershare
PDF Editor

فعاليتها وكيف هي مصدمة في الحاضر، لماذا مثلا شكوى في الحاضر تنشط شكاوي ماضية موجه نحو الأب والأم.

تجدر الإشارة إلى أن الحاضر في العملية الاتصالية يحي وينشط الماضي، والماضي أساسي لاستقبال الحاضر؛ فالأحداث المتعلقة بالطفولة (الماضي) تطغى على الإمكانيات النفسية الدفاعية ، أي تكون مصدمة، تأثيرها يبقى فعال وبالتالي إما: أن يكرر الفرد مستقبلا تلك الصدمات التي عرفها في طفولته (ميل إلى التكرار) لهذا بعض الأشخاص في فترة من حياتهم يكررون الفشل، الأحزان الإحباطات الماضية، وإما أن يكبت تأثير الصدمات الماضية، الأمر الذي يؤدي إلى عودتها وظهورها عن طريق الأعراض المرضية العصابية أو حتى الذهانية أوالاضطرابات النفسية الجسدية.

فمثلا صدمة في الحاضر تنشط في الواقع وحقيقة الأمر صدمة ماضية، مما يعطي معنى للصدمة الماضية التي بقيت بدون بلورة. لإعطاء معنى لأحداث الحاضر لابد من معرفة مدى موقعها وتأثيرها في تاريخ شخصية الفرد والرجوع أساسا إلى ماضيه لإيجاد المعنى الحقيقي لها، والدليل على ذلك مثلا الحلم يرتكز على أحداث اليوم أي على ما هو حاضر لإخراج ما له علاقة بالماضي البعيد (الطفولة).

يتبين لنا : أنه عندما يتحدث المفحوص ويتكلم مع الفاحص، فهو يتوجه بكلامه أيضا دون أن يعي ويدرك ذلك، إلى أشخاص من تاريخه الخاص، حيث تأثيرهم بقي دوما حيا فيه.

مهما اختلف جنس الفاحص فإن المفحوص يسقط عليه مشاعر موجه للصور الأمومية (Imago Maternelle) والأبوية (Imago Paternelle).

ومهمة الفاحص تقتضي سماع بل الإصغاء إلى الرسائل الموجه للصور الوالدية عبره هو، وفهم أنها أي أن هذه الرسائل غير موجهة إليه كشخص في الحاضر، إنما أيضا للأشخاص الذين عرفهم واتصل بهم المفحوص في ماضيه، لهذا دور الفاحص لا يكمن في إعطاء النصائح حتى وإن طلب منه ذلك المفحوص بنفسه، إنما مساعدته على حل المشاكل مع شخصيات ماضيه.

Wondershare™
PDF Editor

و بما أن رسائل المفحوص موجهة لغير الفاحص ، فلا يفرح هذا الأخير كثيرا و لا ينزعج إطلاقا مما قد يوجه إليه من رسائل: ايجابية أو سلبية ، لأنها ليست موجهة لشخصه، و إنما لمن يذكيهم هو في ذهن المفحوص.

التحويل إذن هام في المساعدة النفسية، باعتباره يسمح بتكرار الماضي وبالتالي بالبناء من جديد ترسبات ماضية كانت و لا تزال ضاغطة على الجهاز النفسي. فهو يسمح بإعادة بناء التاريخ الشخصي والتاريخ مع الغير الذي " بنى " الفرد بشكل غير محكم.

2- التواصل الفعال :

تجمع الفاحص والمفحوص علاقة خاصة في إطار المساعدة النفسية، يتم خلالها التواصل من لا شعور إلى لاشعور طرفي العلاقة الثنائية هذه.

إذا لم يتحكم المختص النفساني في هذه الظاهرة النفسية، قد يؤثر ذلك سلبا على مسار المساعدة النفسية، وبالتالي قد تعرقل مثل هذه المشاكل على عملية التواصل العميقة، التي أساسها التحويل، باعتبار هذا الأخير ينشط كما أشرنا، الماضي ويحرر الشحنات الوجدانية بالسماح لها بالتكرار في الحاضر، ولن يتم ذلك إلا بالإصغاء الفعال من قبل الفاحص إلى كل ما يقال وما لم يقال في العلاقة الثنائية. نشير إلى أن إهمال الفاحص لما لم يقال، قد يؤدي بهذه العلاقة إلى منعطف خطير يصعب التحكم فيه.

يقوم التواصل الفعال على فهم الأخر (المفحوص) ومتطلباته، لا يمكن أن يتم هذا الفهم إلا بالإصغاء للمفحوص، لفهم معاناته، وأبعاد شخصيته ورغباته وانفعالاته.

فالفاحص يشعر مفحوصه بالأهمية وأهمية ما يتحدث عنه ويقوله عن جوانب شخصيته، فلابد أن يشعر المفحوص في عملية الاتصال هذه - التي غرضها المساعدة النفسية - بالاحتواء الذي نلمسه من خلال ما يلي :

- عدم كثرة كلام الفاحص.
- جعل المفحوص يشعر بالارتياح عندما يتكلم وذلك بالانتباه إلى كل ما يقوله ويفعله، والنظرات المريحة والمشجعة له.
- التحكم في كل المثيرات التي تشتت الانتباه.
- لا يشعره الفاحص بأنه متعاطف معه ضد أشخاص آخرين.

wondershare™
PDF Editor

- طرح الأسئلة في الوقت المناسب، و العمل على مستوى المادة التي يأتي بها المفحوص دون أن يشعر هذا الأخير بفضول الفاحص في البحث في تراجيديا حياته.

يتفادى الفاحص بعض المشاكل التي من شأنها عرقلة عملية الإسترسال في التفريغ كاستعمال الهاتف، الكتابة أمامه.، بالإضافة إلى التحكم في شخصية الفاحص ذاته، بحيث قد يقع في بعض المكائد فيتصرف سلبا في علاقة المساعدة النفسية ،لقد أشار ر. بيرو (R. ,2001 PERRON) إلى مثل هذه المكائد نبلورها فيما يلي :

3- مكائد التواصل في علاقة المساعدة النفسية:

للتحكم في كل متغيرات العلاقة الثنائية : فاحص - مفحوص، على الفاحص أن ينتبه عن وعي إلى دينامية شخصيته و إلى تاريخه الخاص ، تجنبا للوقوع في بعض مكائد التواصل في علاقة المساعدة النفسية، التي ندرجها كما يلي :

- **الشعور بالتفوق :**

إذا رضخ الفاحص للرغبة ولذة الإحساس بأنه المختص في التنظيم العقلي، وأنه المثقف أكثر من المفحوص وأذكى... إن ذلك يؤثر سلبا على العلاقة الثنائية، بل على الفاحص أن يحترم المفحوص ولا يشعره بكل ذلك، فمثل هذه الأحاسيس عرفها هذا الأخير مع الغير خارج الفحص، وإذا شعر بها أيضا داخل الفحص، فكيف يمكن أن يتجاوز صراعاته وأين وعند من ؟.

- **لذة التحكم :**

على الفاحص تجنب علاقة سلطوية مع المفحوص، يفرض فيها سلطته التي قد تضع المفحوص في وضعية طفلية أو حتى وضعية التلميذ، فيشعر المفحوص أنه أمام معلم متسلط وبالتالي لن يشعر بالحرية التي تسهل له عملية التفريغ والتصريح بمكونات لا شعوره.

- **المحاولة البيداغوجية :**

قد يحاول الفاحص أن يكون " المعلم الجيد، الأب الطيب... " لكن لا يحتوي المفحوص، علما أن هذا الأخير تعامل كثيرا مع معلمين جيدين وأباء طيبين رغم ذلك يعاملونه معاملة سيئة من أجله وفي صالحه. إذن المفحوص

wondershare™
PDF Editor

بحاجة إلى شخص يمتنع عن القول له والطلب منه ما الذي ينبغي أن يفعله، وعلى الفاحص أن يمتنع عن تقييم المفحوص، يفهمه ويحتويه، محترما إياه في كل اختياراته ولا يقوم بسلوكات قد تستدعي إقبال المفحوص على اختياراته.

- **النصائح :**

يرى بيرو (PERRON, 2001) أن النصائح حسب الحياة اليومية مصيرها إما : أن نتبعها وتجري الأمور عكسها فنحقد على الذي أسد لنا النصيحة، أو لا نتبع النصائح وتتعقد الأمور فنحقد أكثر على الناصح، لأنه لم يؤكد ولم يصر على إتباع النصيحة.

لهذا بدل من إعطاء النصيحة، لابد من البقاء في دور الفاحص ونقول للمفحوص قبل أن تتصرف هكذا نفكر معا ما الذي يحملك على هذا التصرف، نحلل الوضعية ودوافعك، بهذه الطريقة نبقى في دور الفاحص.

- **الإغراء :**

إذا كنا نعرف عن طريق التجربة الميدانية أن المفحوص في إطار التحويل يستثمر الفاحص، إذن من الضروري أن يتجنب الفاحص أية محاولة لإغراء مفحوصه، هذا لا يعني أنه يجب أن يكون في وضعية لا مبالاة، لا إنما يحترم العلاقة المؤطرة؛ وحتى وإن كان الفاحص جذاب، فإن انجذاب المفحوص له، ليس لحقيقة شخصه، إنما للغير - للصور الوالدية التي يذكيها- قد يحاول الفاحص، خاصة في القطاع الخاص، إغراء المفحوص ليعود إلى الفحص، فحسب بيرو من الضروري الحذر والإنتباه، لأن ذلك قد يؤدي إلى مشاكل غير متوقعة، وإذا كان الشخص يتألم فهو الذي يطلب المساعدة وبالتالي يعود إلى الفحص، فلا داعي " لاصطياده " على حد تعبير بيرو.

- **وضعية الإصلاح :**

يحاول الفاحص أن يفهم المفحوص من خلال سلوكاته أن كل الذين عرفهم ألموه وأذوه، أما هو (الفاحص) فيكون أحسن منهم يحاول إصلاح كل ذلك؛ هنا يجب ألا يشعر المفحوص أن الفاحص يتحد معه ضد أشخاص آخرين، إنما يتحد معه من أجل مساعدته على التخفيف من ألمه وأن يكون ما يتمناه

wondershare™
PDF Editor

خاتمة :

يسعى الأخصائي النفساني في ظل الالتماس العيادي إلى الوصول إلى داخلية الفرد وفهم هذه الداخلية ومن ثم الوصول إلى إعطاء معنى لكل ذلك، متبعا خطوات منهجية محددة ضمن عملية الاتصال التي يصبغها التحويل ليصل إلى الإحاطة الشاملة بتفاصيل الحالة من منظور دينامي، ترابطي، علائقي وتاريخي محترما بذلك المادة التي يأتي بها المفحوص، أي أنه إذا تكلم عما يعانيه مع أسرته مثلا نتيجة لعدم تفهمهم له وعدم تقبلهم له، نبقى في هذا الإطار، ونعمل على ذلك وليس على شيء آخر؛ حتى يتمكن من تحرير الشحنات النفسية المرتبطة بمثل هذه التصورات التي علقت في الجهاز النفسي إزاء الأسرة أو حول ذاته، الغرض من ذلك أن يصبح المفحوص واعيا مدركا لما يحدث على مستواه، حتى يحسن تفاعلاته مع المحيطين به، أي أن مساعدة الفاحص في هذا النوع من التواصل بالمفحوص تكمن في جعله يتقبل مشكلته والتعامل معها دون استنفاذ طاقة نفسية بشكل يرهقه، كما يساعده على تحقيق تكيف ايجابي مع الوسط الذي يحتضنه.

لا يهتم الفاحص بتعداد الأعراض بقدر ما يهتم بالحصول على ديناميكية شخصية مفحوصيه، والتعرف أساسا على كيفية تصدي جهازهم النفسي للمشاكل (توظيف جهازهم النفسي اتجاه المشاكل) لمساعدتهم على الحد من الألم الذي يعانون منه وإيقاف النزيف النفسي الذي أدى إلى اختلال في النظام الداخلي لشخصيتهم.

طبعا كل هذا يتم في إطار الفحص النفسي الذي يشعر فيه المفحوصين باحتواء الفاحص لهم، وذلك يتفهم حالتهم، والإصغاء الفعال لمشاكلهم، ضمن الاتصال اللاشعوري بينه و بينهم، بحيث أن المفحوص يتلقى رسائل لا شعورية من الفاحص الذي يحترمه ويشعره بذلك، هذا الاحترام أساسي في تقديم المساعدة النفسية، ربما لم يشعر المفحوص بهذا الاحترام خارج نطاق الفحص، نقصد في علاقاته الاجتماعية، لاسيما مع أفراد الأسرة الذين قد ينقلون مشاعر سلبية له، مما يشعره بالضجر والضيق وقد يصل الأمر إلى حالة اليأس والقلق.

إذا وجد المفحوص آذان صاغية من قبل المختص النفساني فإن ذلك يعد نصف العلاج.

Wondershare TM
PDF Editor

يكون الفاحص في الإصغاء الفعال المرآة التي يرى ويعي من خلالها المفحوص بوضوح العراقيل التي غالبا ما تكون نابعة من أعماق شخصيته والتي تؤدي إلى فقدان التكيف مع الواقع الداخلي والخارجي.

إذن عن طريق التواصل يساعد الفاحص مفحوصه على إبصار وإدراك والوعي بالأنسجة اللبيدية والعدوانية التي منبعها اللاشعور، والتي غالبا ما تكون وراء كل ألم نفسي، إذن مساعدته على إقامة نظام داخلي على مستواه الذهني؛ نعرف أن الفرد يستجيب للمواقف التي قد يمر بها على ضوء تاريخ حياته واتجاهاته وبناء لنوعية تقمصاته.

يساعد الأخصائي النفساني هذا الفرد من حيث هو وحدة كلية حالية وزمنية في موقف معين، ليعيد بناء الماضي الذي يحمل ترسبات قديمة تأثر في الحاضر لذلك في الاتصال بالمفحوص على الفاحص أن يتعرف على الجو العاطفي والاجتماعي الذي أثر في الحالة النفسية للمفحوص لإعادة بناء التاريخ الشخصي والتاريخ مع الغير الذي بني بشكل فوضوي منذ الطفولة من أجل مساعدة " الأنا " على إيجاد واسترجاع التوازن بين أركان الجهاز النفسي في مواجهته للحالة الراهنة التي هو عليها أو آل إليها.

wondershare™
PDF Editor

المراجـع

1-ANZIEU D. *Le penser. Du Moi-peau en Moi-pensant*, Paris, Dunod, 1994.

2- ANZIEU D. CHABERT C., *Les méthodes projectives*, Paris, P.U.F, 1997.

3-BLANCHET A. et al., *L'entretien dans les sciences sociales.L'ecoute, la parole et la sens*, Paris, Dunod, 1985.

4-DEBRAY R. *Apprendre à penser*, Paris, Edition Eshel, 1989.

5-FREUD S., *La technique psychanalytique*, Paris, P.U.F, 1967.

6-KLEIN M. *Essais de psychanalyse*, Paris, Payot, 2ème ed. 1972.

7-LAGACHE D. *La psychanalyse*, Paris, P.U.F, 1989.

8-LEBOVICI S. « Le psychanalyste d'enfant », in *Rev. Française de psychanalyse*, N° 1, T.XL, 1976, P. 11-29.

9-PERRON R. *Genèse de la personne*, Paris, P.U.F, 1985.

10- PERRON R. « La situation d'examen psychologique entant que mise à l'épreuve de la valeur personnelle » , *in Bulletin de Psychologie*, N° 25, 1988, P. 1001-1007.

11-PERRON R. et al. *La pratique de la psychologie clinique*, Paris, Dunod, 1997.

12-PERRON R. *Une psychanalyse pourquoi* ? Paris, Dunod, 2000.

13-PERRON R. *Névrose et transfert*, Alger, A.P.A. UNISEF, 2001.

14-SCHAEFFER J. et DIATKINE G. (Sous la direction de), *Psychothérapie psychanalytique*, Paris, P.U.F, 1998.

wondershare™

PDF Editor